

المأساة الإنسانية في غزة

بقلم يان إيغيلاند Jan Egeland ويان إلياسون Jan Eliasson

بينما لا تزال أنظار العالم مصوبة نحو لبنان، نجد أنه على مسافة أقل من ٢٠٠ كيلومتر جنوب البلاد، وبالتحديد في غزة، تدق قبلة بشرية موقوتة في سبيلها إلى الانفجار. فيتكدس زهاء ١,٤ مليون شخص في غزة - أكثر من نصفهم من الأطفال - داخل احد أكثر مناطق العالم كثافة سكانية، محرومين من حرية الحركة، وبدون مكان يفرون إليه، أو يختبئون فيه. فمع قطع سبل الاتصال مع العالم الخارجي بصورة تكاد تكون كاملة منذ أواخر حزيران/ يونيه الماضي، تتنامى معدلات الفقر، والبطالة، والافتقار إلى الأساسيات، واليأس في غزة. ومن المحزن فان ما تحتاجه غزة اليوم أكثر من أي شيء آخر هو أكثر ما تفتقر إليه و هو: الأمل.

في أيلول/ سبتمبر الماضي، اجتمعت ٣٥ دولة بحضور كل من الأمم المتحدة، ومنظمة الصليب الأحمر، والمنظمات غير الحكومية في ستوكهولم للمساعدة على إعادة إحياء بصيص من الأمل لسكان غزة. فتعهدت الدول المانحة بتقديم ١١٦ مليون دولار إضافي لتلبية الحاجات الإنسانية العاجلة داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، تم تخصيص نصفها لنداء الأمم المتحدة بتوفير ٣٨٤ مليون دولار للحاجات الإنسانية في تلك المناطق. وبينما نشيد بالمناخين علي هذه الخطوة، فإن سكان غزة بحاجة لما يفوق ذلك بكثير- وفي أقرب فرصة ممكنة. و لاتزال ٤٢% من الاحتياجات الإنسانية التي يشملها نداء الأمم المتحدة الإنساني غير ممولة علي الرغم من ارتفاع الأصوات بالتحذيرات من إمكانية تدهور الوضع بشكل سريع دافعا كثير من عائلات غزة إلى حافة الهاوية.

منذ بدأت العملية الإسرائيلية المعروفة باسم "أمطار الصيف" في أواخر حزيران/ يونيه، كرد فعل لاختطاف أحد جنود قوة الدفاع الإسرائيلية، لقي أحد الجنود الإسرائيليين مصرعه. وخلال الفترة ذاتها، قتل ٢٣٥ فلسطينياً، ٤٦ منهم من الأطفال. إن خسارة أي حياة شئ موجب للاستهجان...و لكن مما لا شك فيه هو أن رد الفعل، اذا ما قيس بعدد أرواح المدنيين التي

زهقت، غير متكافئ. وبالنسبة للفلسطينيين والإسرائيليين على حد سواء، كانت تبعات القتال الذي اندلع هذا الصيف قاتلة بقدر ما هي مدمرة لفرص تحقيق السلام في هذه المنطقة المضطربة.

انقطعت غزة عن العالم بانعدام سبل الاتصال مع الخارج جواً وبحراً وبراً، بشكل شبه كامل، ووصلت حركة السلع والأشخاص إلى حالة أشبه بالجمود التام. كما سبب قصف جيش الدفاع الإسرائيلي محطة إنتاج الكهرباء الرئيسية هناك في نقص شديد في إمدادات الكهرباء والماء، فأضحت تصل بصورة متقطعة وغير كافية. و تم شل عمل العديد من مرافق البنية التحتية المدنية الأساسية. وتظل غزة اليوم تعتمد على المصادر الخارجية للغذاء والإمدادات التجارية. وتدهور الأوضاع الصحية بسبب قلة إمدادات الماء النظيف. ومع استمرار تدهور الاقتصاد الفلسطيني بإمكاننا أن نتوقع ازدياد سوء الأحوال الإنسانية هناك.

تخيل أنك أب أو أم تعيش في غزة، على رقعة من الأرض لا تتجاوز مساحتها ربع مساحة مدينة لندن وضواحيها (١,٦٢٠ كيلومتر مربع)، ويبلغ تعداد سكانها نفس تعداد سكان مدينة ليدز (١,٤٩ مليون نسمة)... ولا يمكنك مغادرة تلك المساحة الصغيرة، ولا يمكنك استيراد السلع أو تصديرها... يعيش أطفالك في خوف دائم من العنف. كما وتزيد ندرة الإمدادات الأساسية، خاصة الماء، من احتمال تفشي الأمراض المعدية مثقلة من وطأة الحياة اليومية... وينهمر في كل يوم وابل من القذائف المدفعية، يصل إلى ١٨٥ قذيفة، على أراضيك. وتشاهد في كل ليلة صواريخ تطلقها الجماعات المسلحة عشوائياً على إسرائيل... وتعرف أنه حين يحل وقت الثأر، لن تنجو أنت أو أسرته من تبعاته.

والآن تخيل أنك تعيش في إسرائيل. في كل ليلة، تتساقط عليك الصواريخ. وتستمر الجماعات المسلحة في تقويض أساس فكرة وجود بلدك، وحياتك اليومية، وكينونتك.

إننا نؤمن بأن انتشار العنف في غزة والضفة الغربية ليس في صالح أي من الطرفين، خاصة وأهنا تقعان في ملتقى طرق العديد من الحضارات والديانات الكبرى في العالم.

وفي سبيل نزع فتيل القنبلة الموقوتة التي تدق في غزة، نحتاج للعمل على الفور على ثلاث جبهات: الجبهة الإنسانية، والاقتصادية، والسياسية.

أولاً، يتعين على جميع الأطراف حماية المدنيين والبنية التحتية المدنية. فنناشد الحكومة الإسرائيلية بوصفها القوة المحتلة، والسلطة الفلسطينية، وكافة الجماعات المسلحة أن تلتزم بمسئولياتها التي ينص عليها القانون الدولي.

وبالإضافة إلى وقف الأعمال العدائية، لا بد أيضاً من كفالة حرية التنقل للمدنيين وعاملي المؤسسات الإنسانية... فبالنسبة لسكان غزة إن شعورهم بأنهم محاصرون يعيشون في قفص أمر غير قابل للتحمل، ومدعاة لمزيد من اليأس و القنوط. لا بديل الآن عن التنفيذ الكامل لاتفاق ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٥ حول ضمان حرية الحركة والتواصل.

كما أن حرية التنقل هي أمر أساسي بالنسبة للعاملين في المجالات الإنسانية حتى يتمكنوا من الوصول إلى من يحتاج إلى مساعدتهم في كافة أنحاء غزة والضفة الغربية. وينبغي جعل معبر كارني، وهو نقطة العبور الأساسية بين إسرائيل وغزة، منطقة آمنة خالية بعيداً عن الصراع، تكون مفتوحة أمام تدفق السلع الأساسية للشعب الفلسطيني. ومن الممكن تعيين طرف ثالث مستقل لمراقبة هذه المنطقة و التعاطي مع المخاوف الأمنية المشروعة لإسرائيل. ونظراً لاعتماد غالبية سكان غزة على المعونة الخارجية للبقاء، فإن وصول المساعدات الإنسانية دون معوقات يصبح مسألة حياة أو موت.

وعلى الصعيد الاقتصادي، نناشد السلطات الإسرائيلية أن تفرج عن حوالي ٥٠٠ مليون دولار من العوائد الضريبية والجمركية الخاصة بالفلسطينيين التي لاتزال تحتجزها. فهناك حاجة ماسة لهذه الأموال لتغطية الحاجات الإنسانية والاقتصادية.

بيد أن المال وحده ليس الحل، ولا بالطبع المساعدات الإنسانية التي تشبه ضمادة الجروح التي تلتصق على جرح مفتوح. ففي الخلاصة لا يمكن أن يعود الأمل أو تلتئم جراح هذه المنطقة المضطربة إلا

بالعودة لعملية السلام وإيجاد حل سياسي دائم يقوم على وجود دولتين. الحاجة عاجلة... هذا هو الوقت... إنها قضية تضامن... وفيها تحقيق الأمن لنا جميعاً.

يان إيغلاند هو وكيل الأمين العام للأمم المتحدة للشئون الإنسانية ومنسق عمليات الإغاثة في حالات الطوارئ. ويان إلياسون هو وزير خارجية السويد ووكيل الأمين العام للأمم المتحدة للشئون الإنسانية سابقاً (١٩٩٢-١٩٩٤).